رواية

عالمٌ آخر

اسم الكتـاب : عالمٌ آخـر
الجنــس : رواية
الكاتـب : شيماء نجم عبد الله
القيــاس : ١٤ × ٢١ سم
عدد الصفحـات : (٩١)
عـدد النســخ : (٥٠٠) نسخة
الطبعـة الأولـى : لسنة ٢٠٢٣
التصميــم : رنين فاضل
لوحة الغلاف : الرسامة اسراء سامي
تنقيــح : د. عادل البغدادي
النـاشِــر : دار المثقف للطباعة والنشر / بغداد/
باب المعظم / شارع المكتبات / هاتف ٠٠٩٦٤٧٧٣٩١٧٤٧٣٦

البريد الإلكتروني (email) : daralmothaqaf@gmail.com

رقم التسجيل الدولي (ردمك) (ISBN 978-9922-9640-2-7)

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقل بأيّ وسيلة من الوسائل التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية ، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّـي من دار النشر والمؤلف .

All rights reserved. No part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means: electronic, mechanical, photo copying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publishing house and writer .

رواية

عالم آخر

شيماء نجم عبدالله

أيام

أثقلت حملها على كتفي، ودارت حولي، ليس لي مخرجٌ غير صبري

على الحرمان، تهالكت عظامي وصرخت:

- لينكِ حملتِ حُلمكِ بعيداً عن الزمان.

شيماء

-١-

لم يخطر في بالي أني سأراه مرة أخرى، بعد كل هذه السنين التي مرّت ومرَّ معها الكثير من اللحظات والآهات، كنت أعتقد إنه قد قُتِل في إحدى الحروب، أو قد اغتيل في إحدى محاولات القتل على الهوية، أو قد صادف إن انفجرت عليه سيارة مفخخة، ولكنه ها هو كما كان كأن شيء لم يمرّ عليه، أو إنه لم يكن ليعيش كل هذه الأحداث.

أكملت طريقي نحو سيارة الباص نوع (كيا) التي كادت أن تمتلئ، نفضتُ غبار الافكار والذكريات جميعها في اللحظة التي رأيته فيها وهو داخل باص آخر، ينظر إليَّ وهو أيضا مستغرباً أن يراني بعد كل تلك السنين، كم هي صغيرة هذه الدنيا .

جلستُ على أحد المقاعد وأنا أرسم تفاصيل وجهه في مخيلتي، قاطعني أحدهم وهو يعطيني خمسمائة دينار لكي أوصلها إلى الشخص الذي يجلس أمامي، اخذتها وانتظرت أن يعطيني الآخرون نقودهم لكي اوصلها إلى السائق دفعة واحدة، انطلق

الباص نحو حياة جديدة قد توصلني إلى منزلي وقد تذهب بي إلى عالم آخر، لم أعد اثق باستمرارية حياتي لكثرة الحوادث المرورية التي تحدث بين لحظة وأخرى، هناك تذكرت حين ارسلت له رسالة صغيرة، أُخبره فيها إني أشعر بمشاعره ليس إلا، وكان الرد كالصفعة على وجهي، حيث تجاهلني وأخذ يقلل من شأني محاولاً جعلي اضحوكة بين أصدقائه، إلا إنّه خسر رهانه ووقف أصدقائه بجانبي، متعاطفين مع مشاعري التي اخفيتها بعد تجربتي الغبية هذه، حيث لم أعد أثق بأي رجل، مَنْ هم الرجال؟ حملت حقيبتي وصحت:

- نازل.

سحبت الباب على أخرها ونزلت وقلبي يملئه التساؤل، من هم لكي يدمروا مشاعرنا؟، مسحت صدغي بكفي فأمتلئ بالعرق، وما عساني أن أفعل فالحر الشديد جعلني اتصبب غضباً .

فتحتُ باب منزلي ذا الخطوط المستقيمة، تتساوى مع بعضها في الطول ولكنها لا تتساوى في الحب، هذا الأخير الذي أشعر فيه بالدفء والطمأنينة، فهو من يجعلني أشعر بالقوة وينسيني كل شرور العالم.

اتجهت صوب صنبور الماء وفتحته، لم يخرج منه شيء، وضعت يدي على زر الكهرباء عندها جاء الماء بقوة و أخذت أرش حديقة المنزل؛ لأنها تشعرني بالراحة، بعيداً عن الصعوبات التي تملأ حياتنا التي إن لم تلحق بها ستقضي عليك لا محالة.

دلفت إلى الصالة و تمددتُ على الارض لعلي أشعر ببرودتها واتخلص من سخونة هذه الدنيا، بعد لحظات غفوت لأنتقل إلى عالم الأحلام، حيث الظلام والأجساد المتحركة التي رأيت فيها إني أقف خلف القضبان، أصرخ وأصرخ وحولي الكثير من البشر، بعضهم يمتلكون وجوه متجهمة وبعضهم يرتدي ثياب رثة، أحدهم رفع يده وصفعنا الواحدة تلو الأخرى، حاولت الهروب لكن الأبواب موصده والحيطان مظلمة، امسك بي ودفعني بقوة نحو القضبان، وقال:-

- سأجلدك إن رأيتك مرة أخرى تهربين.

تلاش الصوت كأنه يغرق في الماء شيئاً فشيئاً !

- من الذي يتكلم؟

لم يجبني أحد، امسكتني إحداهن من يدي تجرني نحوها، وإذا بي أمسك بيدها، ركزّتُ في وجهها، اكتشفت إنها أختي كانت تحاول إيقاظي من النوم العميق، الذي قد جعلني اتصبب عرقاً بسبب انقطاع التيار الكهربائي.

قمت من نومي اتخبط كالمجنونة وأتساءل:

- أين أنا ؟

بادرت لمى بالإجابة:

- أنتِ في البيت.
- ومن الذي كان يصرخ؟
- لا أحد إنّه ابن الجيران.
- يا إلهي شعرتُ أني في دوامة الكل يصرخ في وجهي، البشر والظلام والقضبان.
- يُفضّل أن لا تخبريني الحلم، إذهبي وأحكيه في الحمّام ، سيذهب إلى غير رجعة.

- ليس لديَّ القدرة على النهوض؛ فإني أشعر بالتعب الشديد .

- إنسيه إذاً .

تمددتُ مرة أخرى والحر يكاد يأخذ عقلي، صببت الماء على جبهتي لعله يساعدني لأصحو من كسلي.

- آه يا ألهي، كم الساعة الآن؟

قهقهت أختي وقالت:

- وهل سيجيبك إلهك عن الساعة؟

- اِخرسي أرجوكِ، فأنا أتحدث مع نفسي، وإن كنتِ تسمعينّي فأجيبي.

- إنها الرابعة عصراً، هيا قومي وإلا ستصابين بالجنون إن بقيتي على هذه الحالة.

- لن أُجن ولكن الأحلام لا تنفك تراودني.

- اتركي النوم، ولن تراودك بعد الآن.

نظرتُ إلى السقف، المروحة عادت إلى الدوران وعاد النعاس يداعب عيناي، فغفوت مرة أخرى، وإذا بقدر ماء ساخن قد سلق جلدي، وأنا غير قادرة على الحركة،

رفعتُ جفني وإذا بالقطة قد سكبت على الأرض قدح الشاي الذي تركته لمى بجانبي.

قمتُ من على الأرض بعد إن شعرت باستحالة النوم مع هذا الوضع، ارتشفت ما تبقى من الشاي، وتركت الباقي على الأرض تلعق فيه القطة، ضغطتُ على زر تشغيل التلفاز فأراني هذا الصندوق العجيب جموع من الناس تركض وتصرخ ووابل من الرصاص يسقط فوق رؤوسهم، رميت القدح على القطة التي قفزت هي الأخرى على التلفاز، معلنة استغرابها من المشهد، ما هذا ما الذي يحدث؟ هل هناك تظاهرات وأنا في عالم آخر.

أمسكت بهاتفي الذي كنت قد أغلقته منذ شهور لشعوري بعدم فائدته، وجدت حينها الكثير من الرسائل، بعضها مثير للشفقة لأولئك الذين يمارسون الحب الافتراضي، وبعضها لأُناس قرروا أن يحرروا الوطن من الدكتاتورية.

حككت صدغي محدثة نفسي:

- من هؤلاء، وكيف سيحررون الوطن وهم أنفسهم غير أحرار؟

إحدى الرسائل فيها تساؤلات؛ عن سبب عدم وجودي في الافتراضي؟ رسالة أخرى،

وجدت فيها دعوة للحضور والمشاركة في ندوة ثقافية، نعم، نعم بالتأكيد سأحضر، ولكن أمهلوني لأفهم ما الذي يجري؟ وعن ماذا تتكلم هذه الندوة؟

تابعت باقي القنوات وجدت الكثير من الاخبار والأحداث، منها المحرَّض ومنها التي تطالب بحقوق الشعب، مَنْ الصادق فيهم؟ اتصلت بأحد اصدقائي لاستفسر منه عن الأحداث، سمعته يصرخ هو الآخر، ويقول:

- لن استطيع التكلم الآن؛ فهم يرمون علينا القنابل المسيلة للدموع، بل هي مسيلة للدماغ.

أغلق الهاتف ولم أستطع تكملة اسئلتي، كنت مستغربة من جملته "قنابل مسيلة للدماغ"

-٢-

الحياة لكي تستمر تحتاج إلى المواجهة، والآن أواجه حياتي بكل تفاصيلها وأخذت أخطوا نحو الحرية، ولكني أبحث عن الحرية الحقيقية. في اليوم الذي قررت فيه المشاركة، كنت متأخرة نوعا ما ولكني وصلت بكل الأحوال، الخيم كثيرة والشباب والفتيات يصنعون الحياة بدون قائد يقودهم بل ضمائرهم هي من تقودهم، الكل يعمل كخلية نحل، سأبحث عن مكان لي لعلي أصنع شيء لهذا المجتمع المتعب، والمكان الذي وجدته هو خيمة للكتب معروضة فقط للقراءة، كانت فكرة جميلة جداً شجعتني على التبرع بكتبي، فعدتُ مسرعة إلى منزلي وكلي رغبة بتحضير مجموعة مفيدة لهكذا نشاطات، الأرض لم تحملني بل طارت بي، لم أشعر بقدمي وهي تسابق الرياح الجافة التي أخذت تعلن عن قدوم الخريف، بعض من أوراق الشجر تساقطت والتصقت على شعري البني حاولت التقاط بعضها ولكن البعض الآخر أبى وقرر السكون بين ثنياته، صاح أحدهم:

- أترغبين بمساعدتك؟

لم أعِر له انتباهاً، البدايات دائماً فيها شيء من الحب، أشرت إلى إحدى السيارات المارة وعليها علامة التكسي، توقف وهو يلوح لي بأن انفض ما علق على شعري، اخبرته أن لا يهتم فعندما سأصل إلى منزلي سأقوم بغسله، فقط انتبه للطريق الذي قد يقلع شعري مع الورق، وبعد نصف ساعة من النقاش الذي بدأه السائق، لاحظت أن السيارة قد تعدت منزلنا إلى الشارع الآخر، أمسكت بكتف المقعد الأمامي وقلت:

- هل تنوي خطفي؟
- ماذا تقولين؟
- منزلي أصبح خلفنا .
- أعتذر منك أخذنا الحديث، ثم أنكِ لم تطلبي مني التوقف.
- لم تترك لي وقتا للكلام، فأنت لا تسمع سوى صدى صوتك.

وصلت وأخيراً إلى منزلي الذي خلا من سكانه، بعدما تركوا لي رسالة أنهم مدعوين

لعرس أحد أقربائنا، اغتنمت الفرصة واسرعت نحو غرفتي التي كانت تعج بالأغراض من غير ترتيب ومددت يدي تحت السرير وسحبت بعض من الكتب التي غلّفها الغبار بعد أيام الصيف الصعبة التي عشناها، رفعت رأسي والقيت نظرة نحو العنكبوت، كان كما هو يغفو فوق خيوطه دون حراك، اخذت كيساً أبيضاً مطبوع عليه صورة عارضة أزياء، ووضعت فيه الكتب بعد تنظيفها بإحدى القمصان المرمية على السرير، وخرجتُ لا أفكر في شيء غير أن الحق وأترك المنزل قبل أن تعود أمي، وعند باب المنزل وجدت التكسي مازال واقفاً، تسمرت مكاني محاولة فهم سبب بقاءه، أشار لي بالاقتراب، وقال:

- لمْ تعطيني المال وانصرفتِ، ولم أتمكن من أن اخبرك.

ضربت بكفي على صدغي وقلت:

- حسناً، سأعطيك اجرتك بعد أن تعيدني إلى المكان الذي أخذتني منه.

دلفت السيارة وكلي شوق للوصول والمشاركة، وها أنا اصل حاملة معي بعض الكتب لأوزعها على الخيم، كتب قد تنور طريقهم وتزيد قوتهم، وهناك وجدت المتعب الذي

يستلقي على أمنيات الانتصار والخلاص من الجهل والظلم، ومنهم المجهد الذي يحمل هذا وذاك الجريح ويضمد قلوب الشباب والشيوخ لعله يحيّ الناس جميعاً، حملتُ مكنسة طويلة و جمعت الاوراق المتطايرة من على الأرض ولملمتُ معها رسائل قلوب مفعمة بالحب، قد مزقتها القنابل القاتلة للحياة، إحدى الرسائل كانت تحمل جملة قصيرة تتكلم عن يوم اللقاء، ختمتها بقبلةُ حمراء في آخر الوداع، طويتُ الرسالة واحتفظتُ بها في حقيبتي الصغيرة، حملتها وكلي شوق أن أُلاقي مرسلتُها، لعلها قد لاقت حِلمها أو قد مرت بما مررتُ به، تخبطتُ بين المارة، أطالع الأعين الخائفة من مصيرها في هذا المكان، الكل يُغلّف وجهه بيشماغ يخفي تقاطيع ملامحهم، ويخبئ الكثير من كلماتهم المروية على مسامع البعيد، إحداهن تحتضن قدميها وتبكي بحرارة، اقتربت منها محاولة دس إحدى كتبي بين يديها لعلها تفرح بهديتي، ولكنها قفزت من مكانها خوفاً من أن يخطفها أحدهم ويأخذها بعيداً عن وجودها وذاتها .

- لا تخافي أحببتُ أن اُهديكِ كتابي.
- أعتذر منكِ شعرتُ بالفزع، ليلة البارحة خُطِفَتْ إحدى زميلاتنا كانت تعمل في الطبابة ولم تعد حتى الآن.

- لا تقلقي ستعود. لأجل أن نستمر يجب أن نواجه، وإلا سنموت ونحن على فراش الحياة.

- كيف ستعود؟ كل من حولنا يحاول تكميم أفواهنا، ونحن لا نملك سوى صوتنا لنعبّر عن رغبتنا في الحياة الكريمة.

- بل تملكون الكثير، هم خائفون منكم، عِلمكم مقابل جهلهم، ضمائركم مقابل جشعهم.

- حملتُ الكتاب وقامت من مكانها تنفض عنها مشاعر الخوف لتبدلها بمشاعر القوة، رسمت ابتسامة صغيرة على وجهها البيضوي الذي تقاطعه عيناها السوداوان بغمزة لإعلان التحدي ومواجهة المجهول.

تركتها واكملتُ بحثي عن مشاعر أخرى، وبين الوجوه الكثيرة التي تراودني عن سؤالها وجدت جثة ملقاة على إحدى الأسِرّة مقسومة الرأس، لم يستطيعوا إسعافها فقد غادرتها الروح في لحظة غافلت الجميع، لنفقد روحاً زكية أخرى، أمسكتُ بيده كانت باردة جداً ولونها أخذ يبهت شيئاً فشيئاً، وصوت رنين الهاتف يرن بجانبه، لم اتجرأ على قراءة أسم المتصل، كي لا أشعر بالتراجع، فكثير منهم ينتظرون عودتهم على أحر

من الجمر، ولكن الظلم قد أشعل الجمر وحرق الأرواح ومنع لقاءها .

قرأت الفاتحة على روحه، تاركة الطبيب الذي يشرف على فحصه وهو يغطيه ويتلوا على جسده آيات من القرآن الكريم، معبّراً عن حزنه لعدم قدرته على جعله يجيب على هاتفه الذي لم يسكت للحظة.

-٣-

حملتُ آخر كتاب ووضعتهُ بين يدي شاب كان يتظلل تحت خرسانة وضعت لتحميهم من الرصاص، كان يحمل صورة لأطفاله ينظر إليها بين الحين والآخر، بادلني بابتسامة بالكاد أظهرت بعض من أسنانه المتألمة من سوء التغذية، ودّعته وودّعت الخيم والشارع و ركبتُ عربة التكتك التي كانت تواجه الصعاب، بين كر وفر، طالبه منه أن ينقلني إلى أقرب مكان حيث أعود إلى منزلي، سمعته يحاور نفسه ويقول:

- هناك سيارة تلاحقنا !

سمعت جملته وشعرت بالخوف من تأكيد الخبر، هل هناك من يلاحقني؟ تمسكت بالعربة حتى لا أسقط منها أثناء المطاردة، التكتك تسرع والسيارة المظللة تسرع أيضا، دخلنا في إحدى الشوارع الضيقة المليئة بالحفر وبعد كل مرور فوق حفرة شعور بانقباض مخيف في قلبي، حتى سمعت السائق يقول وأخيراً لقد تخلصنا منهم، سألته بتردد:

- و من يكونون هؤلاء ؟

- ليس لدي معلومة أكيدة عنهم، ولكنهم يسرقون الفتيات اللواتي يشاركن في المظاهرات، ويلاحقوننا حتى نتمكن من التخلص منهم.

نزلتُ من عربة التكتك وخطاي ترتجف خوفاً من أن يظهروا لي مرة أُخرى، اكملتُ طريقي وأنا اتلفت حولي، الكثير من البشر هنا، بعضهم يحمل البضائع على ظهره وبعضهم يتسول بملابس رثة، اقتربت من الشارع الرئيسي، أشرتُ بيدي لاستئجار تكسي، لم تمر إلا ثوانٍ وإذا بي أقع بين أيدي تحملني غصباً وتضعني في سيارة بيك آب، لم أرَ منها سوى وجوه ملثمة وأسلحة كاتمة، كتمت على وجودي في هذا الشارع، ومنعت كلماتي من البحث عن يدٍ تنقذني من لحظة يأس.

سرعة لم أعهدها من قبل، كانت كالبرق في الوصول، سيارة لا يقودها بشر يحمل هموم الدنيا على ظهره، ولا حتى عالم قضى حياته بين الكتب ليجد ولو بصيص أمل في علاج مرض عضال.

وصلنا ورأسي مغطى بكيس أسود لا يفارقني، الأصوات تتكرر، زاحمتها أصوات لفتيات أُخريات قد خُطِفن هن أيضاً، رُفِع الكيس عن رأسي وغاب الظلام عني، فتيات في عمري يجلسن والخوف يتربص بهن، أحدهم دفعني لأجلس إلى جوارهن، بعد أن جردني من حقيبتي ومن هاتفي، بكاء مستمر وحديث عن عنف ينتظرنا، في بيت لا ينقصه شيء، كان مؤثث بالكامل حتى أريكته التي جلسنا عليها ذات طراز فخم محاطة بنقوش تحاكي الحداثة، رفعت رأسي أحاول أيجاد ثغرة أتمكن من الخروج منها لو طال زمن بقائنا هنا، فلم أجد سوى الثريات الكبيرة الممتلئة بالكريستال والنقوش التي تزخرف سقف هذا المكان، كانت كل زاوية فيه تحمل لوحة لا تمت بصلة لساكني هذا الدار، كان سجناً مختلفاً، يملئ عينيك بهرجة ولكنه يخنق دواخلك خوفاً من مصير مجهول، تجمعت العصافير على إحدى النوافذ ولكن صوت زقزقتها بالكاد كان يسمع حيث غطى عليه صوت صياح الخاطفين، وبين تأملي للمكان خرج أحدهم قائلا:

- ارتدوا هذه الثياب بسرعة.

رمى علينا ملابس تحمل ذات الشكل، ملابس كالتي يرتديها السجناء، إحداهن بادرت

قائلة:

- أحذرنَ هناك كاميرات.

تعالى صراخهن ورفضهن لهذه الملابس، حتى حاول اسكاتهن قائلاً:

- إصنعْنَ دائرة حول كل واحدة منكن حتى لا تلتقط صوركن الكامرة وعندها غيرْنَ ملابسكن.

مرّت الساعات والخوف يؤرقنا، لا قدح ماء يلطف جفاف شفاهنا ولا حتى لقمة خبز تسكت آلام بطوننا، وبعد القلق الذي أخذ من عقلونا الكثير فُتِحت الباب مرة أُخرى وجاء أحدهم يسأل عني، نعم عني أنا بالذات.

- هل جريمتي لا تغتفر حتى سألوا عني بالذات؟

حاول أحدهم صفعي ولكنه لم يلحق حيث ادرت وجهي عنه وذهبت صفعته في الهواء، عاود رفع يده ولكن جرني من جلابيب قميصي لمعرفة مَن يقف ورائي، حملقتُ في وجهه، ملامحه ليست بالغريبة عليّ قد تراءت لي في مكان ما، نعم لقد رأيته في عالم الاحلام حيث الروح تغادر لتبحث عن مكانها في المستقبل، ترددتُ قليلا

ثم فتحت فمي لأقول:

- هل تعرف الضمير؟ هو من يقف ورائي.

صفعني مرة أخرى دون رحمة، ولم يوقفه شيء لولا رنين الهاتف الذي أثار غضبه وخرج من الغرفة وهو يسب ويلعن، وبعد لحظات تم الافراج عني من هذا الجحيم، لاتصال أحد معارفي في الحكومة قد وصله خبر خطفي فسارع لإخراجي من بين ايديهم دون أن أعرف لِمَ تمَ خطفي؟ ومن الذي خطفني؟ أما الفتيات الأخريات فكان التحقيق معهن أقسى وأصعب، صوت صراخهن قد صم أُذني وأنا اغادر المكان، ليس بيدي اخراجهن ولا بيدي إيقاف هؤلاء عند حدهم، خرجتُ من عالم لا يرحم قد تلطخ بدم الأبرياء وحلم الأنقياء، وعند خروجي التقيت بإحداهن وهي تحاول إخفاء وجهها عن المارة خوفاً من أن يتم خطفها مرة أخرى عندها ستنتهي حياتها.

-٤-

دلفتُ منزلي بعد فراق أيام، احتضنتني أُمي وهي تبكي وتشد يدي بقوة، وتقول:

- لن تذهبي مرة أخرى إلى هناك، أفهمتي؟

همستُ في أذ نها:

- لن أذهب بكل تأكيد، ليس لأني خائفة بل لأني رأيت الكثير من الثغرات التي لن تسمح لهذه المظاهرات بالاستمرار، حيث دخل المندسون بين صفوف الشباب، واختلفت الآراء، وكثُر الصراع، وقُتِل الأبرياء، و القلق أخذ يعيق تحقيق حلمي وحلمهم.

في الليلة التي تركتُ فيها المظاهرات يا أمي، تساقط الثلج فوق الخيم كالرذاذ الذي يُنشر فوق رأس العروس فيغطي برقعها، كذلك غطى سطوح المنازل التي شعرت بالخجل عندما تلامست مع بياض وصفاء ذلك الثلج، يا أمي حلَّ الشتاء، وارتدينا الحُبَّ رداءً وغطى سقوف منازلنا الثلج، حتى إننا لم نصدّق منظر البياض ورمينا

بعضنا بالضحكات وصورنا أشجار الحي وهي تتزين بكرات الثلج، ونسي الناس همومهم للحظات، وبكت بعدها الأرض حزناً على الأرواح التي سكنت أعماقها، بكاءً هزَّ السماء حتى تساقط المطر وذاب الثلج الذي تجملت شوارع مدينتنا به بعد طول انتظار، وحُرمنا من لذة هذا الجمال.

حوطتْ أمي جسدي بيديها، وفاضت دموعها فوق كتفي، لم أستطيع منع نفسي من مبادلتها البكاء، فأنا ايضاً لم أتمكن من إصلاح شيء حتى لو كان قرار يخص حياتي، كيف سأتمكن من إصلاح بلد بأكمله؟

سرنا ونحن نحتضن بعضنا، نعدُّ خطواتنا، تتذكر همومنا، وعند عتبة الباب افترقنا هي عادت لأدوات مطبخها وأنا عُدت لكتبي التي تركتها مبعثرة تحت سريري، تربعتُ بالقرب منها أنفضُ الغبار عنها، وأقلب صفحاتها متلمسة خشونة أوراقها والمتمزق منها، وفي لحظة تفكير عميق قررتُ التبرع بها إلى سجن النساء الذي لطالما فكرتُ في الذهاب إليه ولكن مشاغل الحياة منعتني من إدراج هذه الخطوة ضمن مشاريع حياتي والآن حان وقتها وبكل جدية.

فاللحظات التي عشتُ فيها كسجينة وإن لم يكن في سجن حقيقي كانت تعادل عمراً كاملاً من الخوف والتخبط، لم يكن هناك حيطان ولا قضبان بل كان صراع في دواخل مجموع من البشر لم يكن يعلم من هو القاضي ومن هو السجّان ومن هو السجين، سأدخل إلى سجنهم وأحاور سجّانيهم وسجيناتهم وأدسُّ كتبي بين عقولهم عسى أن أتمكن من تغيير ولو جزء بسيط من عقولهم.

جمعتُ الكتب واخترتُ العناوين التي تساعد في تطوير الذات، ودسَسْتها في صندوق خشبي وبينها وضعت بعض القصص الخاصة بالأطفال، قد أجد من يهوى هكذا قصص.

خلا أسفل سريري من الكتب التي كانت تأخذ حيّزا كبيراً وتشغل بال العنكبوت الذي عاش قلقاً خاصاً به عند محاولته بناء شِباكه حولها، اضطررت إلى تهديم قصره المشيد من سنين، حيث حلَّ الهرج والمرج وخرج يتخبط بين زوايا الحيطان هارباً من بين يديّ بعد محاولاتي الخائبة لقتله.

أحد الكتب غُلِّف تماما بنسيج هذا العنكبوت كأنه يحاول خطف هذا الكتاب

والرحيل به إلى عالم خاص به، عالم يسود فيه السلام والطمأنينة هناك يقلب صفحاته ويبتلع أحرفه ليضع مكانها بصمات أقدامه، التي تركت في كل مكان أثر ودليل لجثة هامدة من الحشرات التي تمرُّ دون استئذان، لتكون في نهاية المطاف عبرة وشاهداً على صراع الحياة من أجل البقاء .

-٥-

أصبح الصباح وزاح الثلج عن نافذتي الصغيرة وبرزت بدلاً عنه وريقات شجرة اللبلاب التي استقرت عليها قطرات الندى، لتنبئني بحياة جديدة عليَّ أن أعيشها مع مشواري الجديد، مشواري الذي بدأ مع سيارة الأجرة التي انطلقت بي مسرعة وعندها أضعت كتابي.

كتاب اشتياق الأرواح لا أجده كالعادة، لم يبقَ شيء أنني اقترب من السجن وما زلت أبحث عنه رغم أني وضعته في المقدمة، الصندوق الخشبي مفتوح من الجانب أتمنى أن لا يكون قد سقط في الطريق أثناء نقلي للكتب، وبينما كنتُ أبحث توقف السائق وقال بعدما مسح أنفه بالمنديل:

- تفضلي، لقد وصلنا إلى سجن النساء، ولكن لدي استفسار صغير، هل لديكِ سجينة هناك؟

رمقته بنظرة استغراب، لِمَ كل هذا الفضول، وغمغمت قائلة:

- لا، ولكن لدي مشروع تنموي، عسى أن أتمكن من مساعدتهم ومن تطوير ذاتهم.

- ما الذي ستطورينه؟ هنَ كلُّهنْ مجرمات أما أن تكون قاتلة لزوجها أو مُحرِّضة على القتل.

- أعتقد إن هذا العمل لا يخصك بشيء، تفضل أجرتك، ومن فضلك هل يمكنك مساعدتي في إخراج هذا الصندوق؟ .

- نعم وبكل سرور.

قالها وهو يرمى الصندوق أمامي كأنه يطردني من مملكته الخاصة، تجاهلت تصرفه والتفتُ إلى الحارس الذي يقف أمام باب السجن عسى أن يقترب مني ويسألني عن سبب وجودي هنا، ولكنه تجاهلني واكتفى بالنظر إلى الصندوق الخشبي الذي تضرر جراء رمية السائق له، أمسكت بالصندوق وجررتهُ رغم ثقله، محاولة الاقتراب من باب السجن، لوحت له ولكنه كتمثال متجرد من الحركة، اقتربت أكثر وصرخت بوجهه وإذا به يصحوا من غفوته، حيث كان يغفوا وهو واقف دون أن يغلق عينيه، قدرة غريبة للحصول على قسط من الراحة دون الاستلقاء على فراش أو حتى على

مقعد بلاستيكي، شعرت بالشفقة عليه، ورسمت ابتسامة صغيرة على وجهي دون أن أشعره إني أرغب بسؤاله عن سر غفوته العجيبة، رمقني بنظرة حادة وتقدم ليقول:

- تفضلي، لماذا تقفين هنا ؟
- لا- لا كنتُ أريد أن اقدم نشاط في داخل السجن.
- هل لديكِ موافقة؟
- موافقة! لا ليس لدي هل هي ضرورية؟
- طبعاً، أذهبي لوزارة العدل دائرة الاصلاحية، وهناك قدمي طلب زيارة وبعدها تفضلي لتقديم نشاطك.
- تمام شكراً لك، ممكن سؤال؟
- تفضلي، (فوك التعب نوب أنتِ) .

همهم بجملة لا أكاد أفقهها:

- ماذا قلت؟
- لا شيء تفضلي اسألي بسرعة.

- هل كنتَ نائماً أم أني متوهمة؟

- لا لم أكن نائماً، هل لديكِ سؤال آخر؟

- لا، شكراً لسعة صدرك.

حملتُ الصندوق وذهبتُ اتخطى تحت بصيص أشعة الشمس التي منحتني بعضاً من الدفء، توقفت عند شارع (المحيط) لأتفرج على النهر، سرحتُ في خيالي والشمس تداعب الصور التي مرَّت من أمامي كأنها تلاعبها لعبة الاختفاء، حتى إني أصبحتُ أرى البنايات التي أمامي عبارة عن جبال مليئة بالثلج ولكنها تذوب شيئاً فشيئاً وأنا اتزحلق مع ذوبانها، صرخ أحدهم:

- إنتبهي ستسقطين، ما بكِ هل أنتِ نائمة؟

صحوت على صراخه بل عدتُ إلى وعيي، تذكرتُ حينها الحارس الذي كان نائماً وهو واقف، قد يكون رأى نفس الصور تحت شعاع الشمس مع فارق بسيط وهو الاستمرار بالوقوف دون التزحلق.

-٦-

وضعتُ الصندوق على المصطبة وجلستُ بجانبه، فلدي مهمة أخرى يجب القيام بها قبل أن أحمله وأدور به بين السجينات، ولكن أين سأتركه؟ بالتأكيد سيُسرَق، أتلفت حولي لم أجد احداً فقط النهر الذي تداعب أمواجه الطيور التي تحاول أن تصطاد بعض من أسماكه، والسيارات المسرعة التي لا يبرز منها إلا صوت احتكاك إطاراتها، وكشك في زاوية بعيدة ، يبدو أنه صغير جداً حيث يقبع تحت سقيفة قد أظلته من أشعة الشمس ولم تترك له مساحة ليبرز، قررت الذهاب إليه رغم شعوري بعدم الرغبة بالحركة، شددتُ الصندوق بالحزام الذي فككته من الحقيبة وجررته خلفي حيث لا قدرة لدي على حمله بعد، وصلتُ إلى الكشك وكان يمتلئ بالجرائد والمجلات والكثير من علب الكولا والسجائر، قلت في نفسي أنه سيكون مكان جيد لحفظ كتبي عنده لحين عودتي وحصولي على الموافقة، اقتربتُ منه كان رجلاً طاعناً في السن، قد سلخ الزمن جزءاً من بشرته، حملقتُ في وجهه فبادر وحملق هو أيضا قائلاً:

- بُنيتي هل تحتاجين إلى شيء ؟

- نعم، أريد قنينة ماء بارداً .

– هل تشربين الماء البارد في هذا الجو؟ .

– عمي، لقد أنتهى الشتاء بعد ذوبان الثلج، فشتاءنا قصير يُعد بالأيام.

بعد مقولتي شربتُ الماء دفعةً واحدة، وبالكاد رشفتُ آخر قطرة منه حتى سألني مرة أُخرى:

- ماذا يحتوي هذا الصندوق؟ أراكِ تحملينه وقد أتعبكِ ثقله؟

- بالفعل؛ أتعبني، لدي عمل في الوزارة و حائرة أين أضعه لحين عودتي وآخذه مرة أخرى.

- لا يهمك يا عزيزتي، بإمكانك تركه عندي وإن شاء الله تكملين عملك بيسر، وهذه قنينة ماء أخرى احتفظي بها؛ قد تحتاجيها في الطريق.

- اشكرك كثيراً لمساعدتي، أتمنى أن تنتبه له فهو ثقيل الوزن ولكنه رقيق وسريع التلف.

خلعت الحزام من الصندوق وأعدته إلى الحقيبة، وسلمته إلى الرجل المسن وأنا في غاية الفرح لأني سأتمكن من إكمال مهمتي دون هذا الصندوق.

أشرت إلى سيارة الإجرة والتي كان صاحبها يغطّي وجهه بنظارة سوداء كبيرة ولحية سوداء كثة حيث لم يتبقَ منه سوى أنفه الذي كان ينفث ناراً بدل الهواء، كنتُ أنوي أن أُعطيه قنينة الماء عسى أن تطفئ جزءاً من الحرارة التي أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً بسبب أشعة الشمس التي سلخت وجهه من نافذة عجلته بعد صباح بارد، ولكني بادرته بالحديث متسائلة:

- لماذا لا توقد التكييف؟
- الجو لا يحتاج إلى تكييف.
- ولكن الحرارة تزداد .
- التكييف عاطل.
- آه تمام.
- هذا ماء اغسلي وجهك به.
- لا شكراً لدي ماء أحمله معي.

وبعد لحظات من ركوبي داخل العجلة ومحاولاتي لرؤية عينيه من خلال المرآة والتي باءت بالفشل، لاحظت اقترابي من الدائرة الاصلاحية، وقلت وأنا أحاول جعله يخلع النظارة:

- ممكن، من فضلك، هل هذه هي الدائرة؟

رفع النظارة قليلاً عن عينيه، رمقني بنظرة غضب وقال:

- هل تعانين من قصور في النظر؟ اللافتة كبيرة الأعمى يراها .

ضحكتُ وأنا أضع كفي على فمي، وقلت:

- لا، فقط أردت التأكد، خفتُ أن تكون دائرة أخرى.

ترجلتُ من السيارة والضحكة لا تفارق فمي على تصرفي المجنون، ولكني تمكنت من رؤية عينيه اللتان أثّرت عليّ بشكل مخيف حيث كُبر حجمهما وسوداهما كان ليكمل طول ذقنه وخشونة صوته ليكون شكلاً لبطل روايات الجريمة.

مسحت عرق جبيني الذي يتصبب كلما قمت بمجهود، وابتلعتُ ضحكتي لأقف بشكل متزن، تقدمت بخطوات متثاقلة نحو الشرطي الذي يقف عند الباب:

- مساء الخير.
- مساء النور
- هل بإمكانك مساعدتي للحصول على موافقة لزيارة سجن النساء ؟ .
- هل لديكِ سجينة هناك؟
- لا، أريد أن أقدم نشاط يساعد السجينات حتى يتعلمْنَ ويعيشنْ حياةً أفضل.

قهقه بصوت خافت مصحوبة قهقهته بنوع من السخرية :

- واضح إنهن سيتعلمْنَ.
- ماذا قلت؟
- تفضلي، من هذا الممر وأدخلي على الضابط وقولي له ما قلتي لي.
- شكراً.

أستغرب لِمَ المجتمع يشعر باليأس عن الإصلاح، تحسّرت على العقول المتجمدة و سرتُ في الممر لأجد غرفة الضابط أمامي، والباب مواربةٌ قليلاً، حاولت التجسس عليه قبل أن أدخل ولكن الشرطي صاح بي وهو يقف خلفي:

- واضح أنكِ ستصلحين السجينات.

ارتبكت، وقلت وأنا أفرك يدي بيدي الأخرى:

- إنك أسأت فهمي، أنا أردتُ فقط رؤية إن كان هناك أحد معه.

دفع الباب ودخل قبلي، وقال:

- سيدي، هذه الآنسة تريد زيارة سجن النساء.

الصوت لم يلاقِ رداً مباشراً، فاستغربت و دخلت بخطوة ثابتة، كنتُ أفكر بالذي سأقوله للضابط عندها لاحظتهُ يطالع الملفات بنظرة حادة، "الرائد رفعت" اسم بحروف ذهبية منقوشة على صدر معطفه الزيتوني الذي امتلأ بالأوسمة وعُلِّق بعناية على كتف الكرسي الدوار، جزء من وجهه الذي أستطيع مشاهدته خالي من الندب ولكنه قاسي بعض الشيء، ذا أنف مدبب وشارب يكاد يغطي فمه، لدرجة شعرت

بالتردد عندما حاولت الاقتراب منه، التفت إلي فجأة، وتجمد نظره على ملامح وجهي، ولم أكد أقول شيئاً حتى برز هدوء صوته الذي لا يشبه قساوة ملامحه، وقال:

- تفضلي.
- العفو، أريد التقديم للزيارة.
- ما الغاية من الزيارة؟
- القيام بنشاط تربوي و تعليمي يساعد السجينات على تنمية قدراتهن العقلية.
- نعم، ممكن رؤية نوع النشاط؟
- الحقيقة ، أحببت أن أوزع كتب تنمية بشرية وقصص ونعمل جلسات نقاش حتى نعرف سبب كل جريمة والهدف منها و كيفية تقويم هذه الجرمة.
- حضرتك تنتمين لأي منظمة؟
- لا أنتمي لأي أحد .
- يعني، نشاط فردي؟
- نعم.
- تمام.

رن الجرس ودخل أحد العساكر كامل القيافة ولكن حاسر الرأس، ضرب الأرض بقدمه اليمنى لتقديم التحية العسكرية ، وصاح :

- نعم سيدي.

- أنجز لها موافقة لزيارة سجن النساء وأرسل معها أحد الضباط حتى يتابع نشاطها .

قطبت حاجبيَّ وقلت:

- ولماذا ترسل معي أحد الضباط ؟

- لسلامتك.

لم أتمكن من الرد عليه لأني لا أعلم ما الذي يدور في خلده، وكيفية تمشية إجراءات الزيارة.

-٧-

لم أُصدّق، هل حقيقة ما أنا فيه؟ لا أعرف كيف أترجم مشاعري، الخوف، الفرح، العزيمة، التردد، أين أنا؟ اخذت أمشي بغير هدى، لا أعرف أأسلك طريق العودة لأخذ كتبي؟ أم أبحث عن الضابط الذي سيرافقني؟ ما زلت أدور حول نفسي، وعندها تعثرت قدمي ببندقية أحدهم وتجمّد نظري عليها، للحظة توقعت إنها ستطلق ناراً قد تفجر رأسي، لكنها بقت واقفة منتصبة ولم تسقط ولم تطلق شيئاً، تحيطها يداً بأصابع خشنة، وتعلوها عينان سوداوان كادت أن تلتهمني غضباً، ولم أدرِ كيف للبندقية أن تتكلم؟، حيث قالت:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم أنا بخير ولكن البندقية . . .

- ما بها؟

- لا شيء.

ومال برأسه ورتّب الغطاء الذي يعلو رأسه "بيريته" ، وقال:

- البندقية همها الوحيد هو من يحملها، أما أنت فما هو همك حتى ارتطمتِ بها رغم بعدها عنكِ؟ .

- همي! لا شيء كنت في مهمة وقد أتممتها على خير وأمامي أيام مليئة بالعمل والنشاط يجب أن أرتب لها .

- اذاً سأتمنى لك أن لا ترتطمي ببندقية أخرى.

غمز لي وحمل بندقيته وسبقني نحو الباب الخارجي الذي كنت أبحث عنه وأنا في دوامة التساؤلات التي جعلتني اصطدم ببندقيته، لحقته حتى لا أتوه مرة أخرى وعندها وجدتُ نفسي أسمع حواره مع شخص آخر كان يهاتفه، وهو يرد عليه بصوت واضح حيث تمكنت من سماعه وهو يقول:

- ما رأيك يا سيدي لو أجعلها تقابل تلك السجينة التي تكتب بخط صغير جداً على الحيطان فهي ماتزال على ذمة التحقيق وتعاني من مشاكل عديدة منها نفسية، قد تنهي مهمتها من أول جلسة عندما تجد صعوبة في التفاهم معها .

فركتُ حنكي في حيرة، وقلت:

– منْ تلك السجينة يا ترى؟ وأكمل حديثه وأنا ما زلت أسير بهدوء خلفه.

– قد يجدوها فرصة لجعلها رهينة مقابل الخروج من السجن، فلذلك أفضّل هذه السجينة لأنها هادئة نوعا ما ومشكلتها لا تعدو لغز بسيط ممكن حله في الأيام القادمة، لنجعلها تفكر كثيراً وتلتهي بها عن باقي السجينات.

– ماذا يقول ؟ رهينة! وأكمل:

– لا تنسَ أنهن عندما يعلمن بوجودها سيرغبن كلهن بمقابلتها وعندها لن نتمكن من منعهن، فهذا حق قانوني لهن بمقابلة الباحثات الاجتماعيات.

أشعر أنه يتكلم عني، مَنْ هذا الشخص هل هو الضابط ولكنه يحمل بندقية؟، والبندقية يحملها الشرطي وليس الضابط.

وعندها لمحت "الرائد رفعت "يمرُّ من الباب وهو يحمل معه ملفات عديدة، قام

بتسليمها للشرطي الذي كان يقف بالقرب منه، وأخذ الآخر يهرول وبندقيته على كتفه، عندها اضعت الشرطي الذي كنت ألاحقه، ووجدت نفسي أدور في المكان نفسه ولم أخرج بعد من الدائرة، حتى أشار لي الرائد، وقال:

- البوابة اصبحت خلفك، تلك التي تعلوها لافتة كبيرة، أذهبي إلى هناك وستجدين طريق الخروج.

سرتُ وأنا احاول إخفاء شعوري بالحرج ، عندما لاحظ "الرائد رفعت" مسيري خلف الشرطي الذي اختفى في لحظة غفلة.

-٨-

وفي اليوم التالي دخلت من بوابة السجن نحو حلمي الذي بدأت بتحقيقه، مصطبات من الرخام وقاعة كبيرة ذات زوايا مليئة بالكاميرات، درتُ في المكان ولحقتُ شعوري بالبحث عن كل ماله علاقة بالسجن، وعندها رأيت السجينات من النافذة وهن يتجولن في الباحة، حيث كان وقت "التشميس"، و في هذا الوقت يذرعن الباحة طولاً وعرضاً لا شيء يلتهين فيه غير التفكير بما مررن به من مشاكل، بعضهن يرسم على الجدران لوحات غريبة كأنها طلاسم سحرية تساعدهن في الخروج من سجنهن الداخلي، وبعضهن يحركن ايديهن بطريقة بهلوانية كأنهن يشرحن طرق ووسائل التخلص ممن يعذبهن، حركتُ يدي أنا ايضاً تعبيراً عن غضبي حيث تذكرت لحظات سجني الذي لم أجد فيه حائط لأرسم عليه صور تعذيبي. نفضت ذكرى تلك الأيام من فكري وركزّتُ على هدفي، وفي تلك اللحظة وجدتُ الضابط والنجوم الفضية الثلاثة تتلألأ على كتفه يقف بجانب المصطبة التي جلستُ عليها والشرطي ذو النجمة الفضية الوحيدة يمسك غطاء رأسه ويحركه يميناً ويسارا ًويقف خلف الباب وأنا ما زلت

أتفحص المكان واحسب الخدوش المرسومة على الحيطان، منها على شكل تاريخ لموعد أحدهم والآخر على شكل قلب حب خلا من السهم وأسماء المحبين، دلفت إحداهن وهي ترتدي قميصاً أسوداً وشالاً بنياً تلّف رأسها بطريقة كأنها كانت تنوي تنظيف مكان ما، رمقتني بنظرة انزعاج، جلسَتْ أمامي وأدارت بوجهها نحوي بعد أن وضعت ورقة على المصطبة التي أجلس عليها محاولة جعلي قراءتها، ألتفتُ إلى الضابط وجدته ينظر ألينا، شعرت بالحيرة، بادرتْ بالقول:

- لا تخافي هذه مجرد ورقة فارغة.

استغربتُ فعلها وأخذتُ الورقة ووضعتها تحت يدي. ضربت على المصطبة بكلتا يديها وكأنها تحاول افتعال ضجة، قاطعتُ ضرباتها والخوف من افتعالها لحركة لا أتوقعها بوضع يدي على يدها، قائلة:

- حاولي أن تهدئي، أنا جئت لأتكلم معكِ وليس لأحقق معكِ.
- قصدك تريدين أن تعرفي قصتي، أنت باحثة اجتماعية؟
- لا، ولكن إذا أحببتي أكون لكِ باحثة اجتماعية.

- لا.

- أذن اعتبريني صديقة تحاول مساعدتك.

- بماذا تساعديني؟

- بتجاوز محنتك، وعندي لكِ هدايا ممكن أن تساعدك ايضاً.

- لا يوجد علاج لمشكلتي، لأن الذي حصل لا يُعقل.

- دعينا نجرب، ولو أني كنت أرغب أن ألتقي بأكثر من سجينة في يوم واحد ونعمل حلقة لنتكلم معاً، لكنهم رفضوا وشُرِط عليّ أن أراكم كل واحدة على جنب.

قهقهت بصوت عالٍ وضربت بيدها على المصطبة، قائلة:

- أول شيء أوجدي حلاً لمشكلتي، بعدها أعملي مجموعات وحلّي مشاكلهن.

رفعتُ الورقة وأخذتُ أحرّكها يميناً ويساراً لأحصل على بعض الهواء، لكنها لم تسعفني بشيء ففتحتها وإذا بي أرى فيها الكثير من الخطوط المتشابكة، ونقطتان باللون الأحمر، حاولت إخفاء دهشتي ولكني لم اكتم صوتي:

- من رسم على هذه الورقة؟

- أنا .

- لماذا الخطوط متشابكة، وهذه النقطة الحمراء على ماذا تدل؟ ثم ألم تقولي إنها فارغة!

استدارت نحو الضابط وتبادلا النظرات، قاطعتهما وجذبت يدها نحوي:

- ركزي معي.

- مجرد خطوط أشعر أني مسجونة بداخلها .

- والنقاط الحمراء ؟

- واحدة تمثلني والثانية تمثل المُجنى عليه.

- أكملي.

- المُجنى عليه هو زوجي.

اندهشت من قولها كلمة زوجها بكل هدوء، نظرت إلى الورقة مرة أخرى، لاحظت أن النقطة بعيدة جداً عن الأخرى، بادرت بسؤالها مرة أخرى:

- ولماذا هذا البعد بين النقطتين؟

- لأني حاولت أن أساعده ولكنه كان بعيداً عن فهمي.

- شوقتني حتى أعرف تفاصيل أكثر عن قضيتك، رغم إنك كذبتي عليّ.

أطرقت رأسها نحو الأرض واخذت تشبك يديها ببعضها:

- ستعيدينني للماضي وكأنه الحاضر، لذلك كذبت، في هذه اللحظة اذكره وكأنه البارحة.. البارحة التي كانت يدي بيده نخطط لمستقبلنا ونحلم بشراء بيت بدل الإيجار وبلحظة سكون واجهني بطلب غريب، رفعت رأسي من على المخدة وأنا بحالة دهشة، كان يطلب مني أن ننفصل لأن حياتنا أصبحت مملة والأفضل برأيه أن كل واحد منّا يعيش حياته بطريقته الخاصة، حاولت معرفة سبب تغيّره، سنوات ونحن نعيش بهذا المستوى، ولكنه ظل يردد المال هو الحياة، ونحن بدونه لا نعيش، سألته:

- وما الحل؟

سكت وللحظة عاش في مكان آخر، وبدا يتكلم بدون وعي، اقتربت منه وأمسكت بيده كانت ممتلئة ببقع زرقاء، شككت بأنه كان يتعاطى المخدرات!.

صمتت للحظات وترقرقت من عينيها الدموع، قطعتُ لحظات صمتها وقلت:

- لدي كتب ممكن أن تساعدك في تجاوز هذه الحالة، ما رأيك لو تلقين نظرة على هذا الصندوق وتختارين بنفسك؟

مسحت دموعها واردفت قائلة:

- إلا تريدين معرفة باقي القصة؟ .
- طبعا أريد، ولكن أحببت أن ترتاحي قليلاً.

رفعت الصندوق معي ووضعناه على المصطبة، وأخذت تقلب في الكتب عندها سحبت كتاباً صغيراً لشارلوك هولمز، قائلة:

- هل تعرفين كم كنت أحب قراءة قصص شارلوك هولمز ؟ وبالتالي أصبحت حياتي عبارة عن قضية صعب حلها، حتى شارلوك هولمز يعجز عنها .
- لا يوجد شيء صعب بوجود عقل يفكر وقلب يؤمن بأنَّ (بعد العسر يسرا) .
- هل تتصورين محاولة تخليصي لزوجي كانت الحل الأصح؟ .
- لا استطيع أن احكم إذا لم أعرف القصة بأكملها .

جلسنا ونحن نجذف في بحر الحياة ومرارتها، يلطمنا الموج ويرفعنا ويعود ليغطس بنا وفي إحدى الغطسات دخل الشرطي، قائلاً:

- انتهت الزيارة اليوم.

ابقيت الصندوق تحت المصطبة وأشرت للشرطي أن ينتبه له لحين عودتي في يوم آخر؛ لأني لم أنتهِ بعد من حواري معها، أومأ الضابط للشرطي بحركة لم أفهمها، فقررت تجاهلهما واحتضنتها وأخذت الورقة المليئة بالخطوط معي على أمل حل لغز قضيتها .

-٩-

عدتُ إلى المنزل وعقارب الساعة تدقُ كأنها مطرقة، تسللتُ إلى سريري خوفاً من استيقاظ ذلك العنكبوت الذي كان يقف في أعلى زاوية من الغرفة، ولكن صوت أمي وهي تناديني للعشاء كاد أن يزعجه ويثير فيه الرغبة لجعلي لقمة شهية في فمه، لم أنسَ ذلك المشهد عند التهامه للنملة كان مخيفاً، صحت قائلة:

- أمي.

ردَّتْ وهي تجهِزُ الطعام:

- أين كنتِ اليوم يا سمية، ألم أقل لكِ لا تذهبي مرة أخرى؟

- لم أذهب للمظاهرات، بل كنت في مهمة للتوعية؟

- وعيّ نفسك أولاً.

ضحكت أختي بملء فمها، وصفقت بحرارة، قائلة:

- صدقتي يا أمي، هي لا تنفك تفكر في العنكبوت والنملة ودائماً تحلم بشبكته تحوطها، وتريد أن تعالج الناس وتوعيهم!

- لا شأن لكِ، لكل شخص ظروف ومعاناة تختلف بحسب قدرته على تقبلها، وأنا متقبلة لظروفي ومتعايشة معها .

- لا تحاولي، أنتِ لستِ متقبله لهذه الظروف والدليل محاولتك للبحث عن مَنْ هم يعيشون ظروف أصعب من ظروفك.

أردفت أمي:

- وما بها ظروفنا حتى لا تتقبلها .

- لا أعلم أساليها .

- أمي، أنا ليس لدي أي اعتراض ولكن هناك شيء اسمه التغيير، فلذلك كلنا نعيش حياة مختلفة عن التي قبلها، ليس من الضروري أن نعيش حياة أنتم عشتموها .

قالت وهي تقرب الملعقة من فمها:

- ليتك تعيشين الذي عشناه.

- بالتأكيد لن نعيشه؛ لاختلاف الأزمان، و اختلاف طباع البشر.

صوت طلقات نارية قاطعت جلستنا وهدوء حوارنا، صراخ الجيران جعلنا نفزع مسرعين نحو الشارع، أحد الاطفال سقط متأثرا بجراحه أثر سقوط أحدى الطلقات على رأسه أردته قتيلا بين أحضان والديه، مشهد جعلنا نفكر كثيراً، من السبب به؟ الوالدان اللذان تركا الطفل يلهو في الشارع، أم المعزين الذين اخذوا يطلقون العيارات النارية تعبيراً عن حزنهم على المتوفى.

احتضنتُ والدتي واحتضنتني اختي، ودخلنا منزلنا ليس بيدنا شيء سوى الحزن على عقول لا تفهم معنى أن نفقد الحياة بدون سبب واضح.

وفي صباح اليوم التالي نُصبت خيمة العزاء ورصفت المقاعد البلاستيكية لإقامة العزاء، الكثير من الناس يتوافدون للتعزية من بينهم من كان يطلق العيارات النارية، حمل بندقيته واخذ يطلق بها هنا وهناك حتى صرخ أحدهم قائلاً:

- إن من قتل هذا الطفل هي هذه البندقية، كفاكم جهل كفاكم، من يرغب أن يعزي فليجلس ويقرأ الفاتحة و من يرغب في قتل الناس فليغادرنا .

حملها ولف عباءته حول جذعه بامتعاض رافضاً فكرة أن من قتل الطفل هي ذات البندقية.

اغلقتُ النافذة وأسدلت الستائر ودموعي لا تفارق اجفاني، نظرت إلى العنكبوت وهو يحيك خيوطه باستمرار، ويلفها على ضحاياه واحداً تلو الآخر، كما يلفها صاحب العباءة على البشر الذين يسقطون بنيران بندقيته.

-١٠-

لحقتُ "الرائد رفعت" عندما لاحظته يدخل إلى مكتبه الخاص به في السجن، حيث لم أرغب في طرق الباب ودخلت مباشرةً، وجدته بكامل قيافته وعلامات بدلته، بادرني بنظرة ثاقبة بعد إن اتكأ على كرسيه، لم أشأ أن ابدأ حديثي مباشرةً ولكنه لم يمهلني سؤاله عن أحواله، ووجه لي السؤال مباشرة فهو معروف بعدم تضييع الوقت، وقال:

- ما رأيك بالسجينة، هل كانت كما توقعت أم العكس؟
- وجدتُ لديها قضية تستحق المتابعة.

غمغم، وقال:

- ما رأيك أيها الضابط جعفر بالباحثة؟

لم أنتبه لدخول الضابط خلفي، حيث كان يقف دون أن يصدر صوت أو حتى تحية للرائد، ولكنه أجاب وهو يضرب بقدمه اليمنى الأرض ويلقي التحية:

- سيدي هي لم تكن باحثة، بل مجرد فتاة أرادت أن تصنع شيئاً للمجتمع، ولكنها ستصطدم بمن ستلاقيهن.

رمقته بنظرة استغراب، وتقدمتُ خطوة ولم ألحق لقول شيء حتى بادر"الرائد رفعت"، وقال:

- وكيف ذلك؟

- هي لا تملك الخبرة للحوار مع السجينات، إضافة إلى ذلك هي مندفعة ومفعمة بالحياة وتتصور إنها ستغير العالم.

- أفضل أن نعطيها فرصة، ما أدراك قد تصلح بعضهن.

- نعم أنا بانتظار نتائج حوارها مع السجينة، فهي للأن لم تكمل حديثها معها وادخلت كتبها في وسط الموضوع ، شعرت أنها تمزح بذلك، فالتي لديها مصيبة هل ستكون مستعدة للقراءة؟

قهقه "الرائد رفعت" بصوت خفيض وقلب صفحة إحدى الملفات، قائلاً:

- ألا تؤمن بأن للكتب تأثير إيجابي على بعض البشر؟

- بالتأكيد أؤمن، ولكن ليس السجينات اللاتي يحملن همومهن وهن بين القضبان.

- لذلك نحتاج إلى هذه الفتاة لتساعدهن للتخفيف عن همومهن كما تقول.

قام بتعديل غطاء رأسه العسكري ذو اللون الأسود استعداداً للخروج، وأردف "الرائد رفعت" قائلاً:

- خذ هذا الملف قد يغير مزاجك قليلاً، ويعيدك إلى المهمات الصعبة.

فتح الملف لثواني وأطبقه بقوة وخرج وهو يبرز من ملامحه الغضب، وأكمل "الرائد رفعت"قائلاً:

- على مهلك، ولا تنسَ أن تنقل لي كل ما يحصل.

- بالتأكيد سيدي.

ضربت الأرض بقدمي معلنة احتجاجي على طريقة تفكيرهم نحوي، وقلت:

- أنتم تتكلمون عني وأنا لا يحق لي التدخل، هل هذا صحيح؟.

قهقه الرائد وقال:

- كالحق الذي اعطي لكِ لدخول مكتبي هنا ولم اتمكن حتى من منعك.

تراجعتُ إلى الوراء خطوتين واطرقت رأسي للأرض، وقلت:

- اعتذر حقاً لقد دلفتُ مكتبك دون استئذان، اسمح لي الآن بالخروج، فوقت الزيارة قد حان.

-١١-

الساعة العاشرة صباحاً، والشرطي يقف كما في آخر مرة رأيته فيها، اقتربت منه وأنا احمل بين يدي باقة من الزهور أخفيتها في مكان آخر بينما أكملتُ حديثي مع "الرائد رفعت"، اقتطفت واحدة لأعطيها له، ولكنه سبقني وقال:

- صباحك اليوم مليء بالزهور ! .

ابتلعتُ ضحكتي وجعلتها مجرد ابتسامة، وقلت:

- أليس أجمل صباح، هو عندما تحمل بين يديك زهوراً وتهديها لكل شخص تراه متعباً ومرهقاً في عمله؟ .

- تقصدين انك ستهديني هذه الزهرة لأني متعب في عملي؟

- ليس بالخصوص ولكن أقصد بالعموم.

- على كل حال، أريد الزهرة البيضاء، لأنها تشعرني بالراحة والهدوء .

- تفضل كما تحب.

- ولمن ستهدين باقي الزهور؟

- للسجينات لعلها تجعلهن في وضع أفضل.

- سنرى إن كان ينفع معهن.

تقدمتُ بخطواتي المتشوقة لمعرفة باقي القصة نحو القاعة والكل يرمقني بنظرات استغراب، باقة من الزهور ملونة بكل الألوان، أشعر بأنهم يرغبون بالحصول على واحدة منها، ولكن لا، ستكون للسجينات وسأجعلهن يزرعنها في أرض السجن لعلها تبث في قلوبهن حب الحياة.

صندوقي كما هو تحت المصطبة وفوقها تجلس سجينة وهي تقلب الكتب التي في داخله، اقتربت منها لم تكن ذات السجينة التي ألتقيت بها أول مرة، قررت الحديث معها بينما يسمحوا لتلك بالمجيء للقاعة.

- هل تبحثين عن كتاب معين؟

- لا، ولكني استغربت وجود الصندوق هنا .

- أنا تركته هنا .

نظرت إلي من الأعلى إلى الأسفل وهي تحك رأسها بطرفي أصابعها:

- ألا تخافي أن يُسرَق؟

- لا، لن يُسرَق.

- وكيف وثقتي بذلك؟ الكل هنا متهم بقضية إما سرقة أو قتل، أي بمعنى أنَّ الكل مجرم.

- لكي نعالج هذه الشخصيات المجرمة ومحاولة إخراجها من النفس الأمّارة بالسوء، يجب دمجها مع شخصيات مختلفة بعيدة عن الجريمة وبإمكانها حل مشاكلها بعيدا عن العنف.

- وهل هذا الصندوق سيعالجها؟

- بالتأكيد لما يحتويه من علم ممكن أن ينظّف العقول وممكن أن يجعلها تفكّر قبل أن تتخذ أي قرار.

صمتت للحظات واردفت قائلة:

- هل لديكِ مقابلة مع أحد؟

- نعم.

- ولكنها لن تلاقيكِ اليوم؟

- لماذا .

- لأني طلبتُ ذلك منها .

اتلفت يميناً ويساراً محاولة البحث بين الوجوه ولكني لم أجدها، عدتُ بنظري إليها، وأنا أفرك حَنكي حائرة:

- وما أسمكِ أنتِ:

- أسمي (شهلة) .

- هل تعلمين أني نسيت أن اسأل السجينة عن أسمها ؟

- أسمها (مينا) .

- آه، هل تحبي أن تتكلمي عن سبب دخولك السجن؟

- ولِمَ إذن رغبتُ بلقائك؟

– أه– نعم – صحيح، قولي لي أولاً أي الكتب قد أعجبتكِ؟

– جميع الكتب جميلة ولكني لا أستطيع قراءتها لأني لا أقرأ ولا أكتب.

– (انا أمام تحدٍ كبير) . بإمكاني تقديم المساعدة لكِ وتعليمك القراءة. . .

قاطعتني وهي تخرج حبل من بين ثنيات ثوبها، شعرتُ بالخوف للحظة ولكنها تلافت خوفي بوضع الحبل في حقيبتي، واخذت زهرة البنفسج من بين الزهور، وشمت عطرها وضحكت بصوت عالٍ حتى أنتبه الجميع لها .

– ماذا تفعلين وما هذا الحبل؟

– الا تريدين مساعدتنا ؟

– نعم بالتأكيد .

– هذا الحبل شنقت به أبي ولكنه لم يمت، بل كَسَرَ يدي وأدخلني السجن.

تسارعت ضربات قلبي وكادت أن تخرج من شدة الخوف:

– ولماذا اعطيتني إياه؟

– أريد منكِ تكملة هذه المهمة.

- وكيف ذلك؟

- ضعي هذا الحبل على الطاولة أمامه، وهو عندها سيعرف إني أنا التي أرسلته.

- وما فائدة هذا الفعل؟

- ليس من شأنك أن تعرفي.

- لن أفعل ذلك إذن.

- بل ستفعلين.

وفي لحظة مباغتة أخذت السلك الذي يشد الزهور وقطعته، وبسرعة لم ألحق بها لفته حول رقبتي ولم أتمكن حتى من الصراخ، الدنيا التي كنتُ أراها كبيرة أصبحت صغيرة واخذت تمتلئ بالظلام شيئا فشيء، وصوت يهمس في أذني اقتليه كما قتلني- اقتليه كما قتلني.

أيدي كثيرة شدتني وأخرى تصرخ وتثور وبين هذه وتلك دوى صوت إطلاق نار أردى الفتاة على الأرض، وأنا بجانبها والسلك يحزُّ رقبتي.

-١٢-

لمحت " الضابط جعفر" وهو يبحث عني بين أروقة المستشفى، حيث بدلته الزيتوني التي تميّزه عن باقي الناس، أسرعت للعودة إلى سريري قبل أن يراني ويبدأ بتأنيبي على فعلتي، وبين حين وآخر أرفع رأسي لأرى أين أصبح ؟و فجأة اختفى عن مدى نظري، ولم أشعر إلا وهو يقف فوق رأسي يطالع الأنابيب المربوطة بجسدي، ويرمقني بنظرة حادة تعبّر عن غضبه وعتابه، أخذ يركّز على جهاز الضغط المعلق في الأعلى محاولا قراءته، وإذ بتفاحة آدم تتحرك في وسط حنجرته، وصوت خشن أخذ يقول:

- هذه المرة سبقتني للحضور إلى القاعة، كان الأفضل أن تنتظري قدومي، كدتِ أن تموتي لولا وصولي في اللحظات الأخيرة.

أجبته وكادت دموعي تفرّ، لولا أني اغمضت عيني حتى لا تسقط إحداها:

- وكم من الوقت يجب أن انتظرك؟ كل ثانية لدي ممكن أن أساعد فيها فتاة.

قهقه بغضب وأنهى قهقهته بسعال شديد، وقال:

- كل ثانية! على العموم السجينة هذا اليوم اعطتك درساً لن تنسيه.

تلمستُ الحز الذي خُط على رقبتي، و قد قطب بأحكام إلا بعض الغرز التي برزت منها بعض الخيوط، وقلت:

- أنا لا اعتبره درساً كان مجرد حادث عرضي.

أخذ يبرم شواربه، وقال:

- سنرى في المرة القادمة ماذا ستفعلين معهن إذا حزت إحداهن يدك أو رقبتك ولم تنجين كما هذه المرة؟

تحسست على أنبوب المغذي الذي علق بيدي وأمتد إلى الأعلى، وهو يقطر ببطء:

- أُنظر إلى هذا الأنبوب كيف يغذيني ببطء، هن أيضاً سأتعامل معهن بروية حتى أتمكن من تهدئة غضبهن وتغيير طريقة تفكيرهن.

أمسك الأنبوب وضغط عليه:

- لو أردن حقاً تغيير تفكيرهن كن اتخذن طريق آخر وليس القتل، ولكن النفس الأمارة بالسوء التي في داخلهن هي من تتحكم بهن لاتخاذ أسرع الحلول و أبشعها .

- لابدَّ إنهن تعرضن لضغط كبير، وضيّق عليهن الخناق وإلا ما اتخذن هذه الحلول البشعة.

- لا تبرري لهن.

- أُحب أن اذكّرك إن السجن هو للإصلاح و ليس فقط للعقوبة، أي يجب محاولة اصلاحهن وجعلهن بشر ممكن جعله مفيد للمجتمع.

- عند زيارتك القادمة للسجن سأريك شيئاً قد يفيدكِ في مشروعك.

- حقاً؟

- وهذا السلك احتفظي به للذكرى، كي لا تنسي مدى خطورة عملك.

عدّلَ من حزام سلاحه، واستقام بوقفته، وغادر الردهة وهو يحملق في وجوه المرضى المستلقين على الأسرّة كأنه يعدهم للاستعداد وأداء الواجب.

برمتُ السلك ولففتُه على إحدى الزهور التي وُضِعَتْ بجانبي و خبأتها في دفتر صغير كنتُ أضعه في جيبي، كتبتُ على أول صفحة فيه (زهرة شهلة) .

صوت أمي ملأ المكان وهي تصيح وتلطم على وجهها:

- ألم أقل لكِ أتركي هذا العمل، ما شأنك والسجينات، ماذا كنت سأفعل لو متِ؟

غطيت وجهي بالوسادة التي كانت خلف رأسي، وقلت:

- لا شيء يا أمي فقط ترحمي لي واعتبريني شهيدة العمل.

قرصتني من يدي بقوة، محذرة إن تكرر الأمر ستطردني من المنزل.

- وهل سيهون عليكِ طردي.

- افضل من عودتك له جنازة.

- اطمئني يا أمي أنه مجرد حادث عرضي لن يتكرر.

ارتمت فوقي وهي تحتضنني وتبكي وتقول:

- لعنة الله على عملك.

-١٣-

هذه المرة وجدت "الضابط جعفر" يجلس على المصطبة بالقرب من السجينة، بدل الوقوف بعيداً كأن أمي اوصته بعدم تركي، كيف سأحاور السجينة وأجعلها تتكلم وهو يجلس في الوسط؟ اقتربتُ منهما والابتسامة لا تفارق وجهه:

- مازال أثر السلك على رقبتكِ؟

شعرت ببعض الامتعاض، وقلت:

- سيزول بمرور الوقت.

طأطأت رأسها ومدت يدها تحاول امساك يدي، قائلة:

- أنا أعتذر منك هي من طلبت ملاقاتك، ولم أكن أعرف إنها ستفعل ذلك، ابلغتني إنها تريد الحصول على بعض الكتب بعدما حكيت لهم عنكِ.

- لا بأس، الغضب غلب صبرها، وإلا لما فعلت ذلك. وإطلاقة الضابط أنقذت الموقف وتركت أثر على يدها كما تركت هي أثر على رقبتي.

- هي عانت الكثير من أبيها الذي عنّفها كثيراً، وحرمها الحياة واخيراً قدمها كعروس لأحد اصدقائه حتى يتخلص منها ويستبدل مهرها بشراء قناني الخمر، التي لا ينفك عن شربها .

- وبدل أن يحاكمه القانون حاكمها هي.

- بالضبط، وذلك بسبب أنها ارادت التخلص من هذا الزواج فافتعلت هذه المشكلة وحاولت حز رقبة أبيها بالحبل، وعندها أمسكها زوجها وزجها بالسجن بتهمة القتل غير العمد لسكير.

- ولكنه لم يمت.

- نعم لذلك لم تحاكم للآن.

- ها أنا حصلت على قصة دخول أحداهن للسجن، ولكن قصتك لم نكملها ؟

- أخبرتك بأني شككت بأنه يتعاطى المخدرات.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

قهقه الضابط ومسح شواربه بمنديله، وقال:

- طبعاً قررت قتله بدل من إصلاحه.

صاحت بغضب:

- لا لم أقتله، فقط بعثته للمصحة ولكنه هناك اتهمني بقتله قبل أن يموت بطريقة مجهولة.

- وكيف تهمك؟ وماذا قال؟

- كتب في مظروف، تركه بجانب سريره، أني من أعطاه جرعة زائدة من المخدرات في زيارتي الأخيرة له.

- وهل فعلتِ ذلك حقاً؟

نظرت إلى الضابط وعدلّت من شالها الأسود ثم أردفت:

- لا بالطبع، ولكنه قبل زيارتي له، اتصل بي وتوسل أن أجلب له إحدى العلب التي كان يحتفظ بها في خزانته.

- لماذا لم تحاولي تفتيش العلبة قبل إيصالها له؟

- كنت أعلم ما في داخلها .

- اذن كلامه صحيح .

- ولكني لم أكن أتخيل أنه سيأخذها كلها دفعة واحدة .

- أصدقيني القول، هل كنت تتمنين ذلك؟

- أنت متوهمة، أنا لم أتمنَ ذلك، كنت أنتظر عودته لي .

- ولكنك أخبرتني أنك كنت تحاولين تخليصه؟

- من تعاطي المخدرات .

- اذن لماذا اوصلتِ له العلبة؟

- لأنه كان يعاني بشكل هستيري .

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- وجدوه جثة هامدة على سريره، وبجانبه رسالة مكتوب فيها (زوجتي هي من ساعدتني على الانتحار) .

صفق الضابط يديه ببعضها، وحار بالقول (لا اله الا الله) واكملت هي (محمد رسول الله) واخذتُ أنا احك حُنكي وأحملق في وجهها لعلي اكتشف مدى صدق روايتها،

همس الضابط في أذني:

- إنها تعاني ايضاً من هوس في دمج الأحداث.

- كيف ذلك؟

- عندما تنتهين من حديثك معها سأطلعك على ملفها .

ترقرقت عيناها بالدموع، بادرتها بابتسامة متكلفة:

- سأتركُكِ لترتاحي الآن وسنلتقي في وقت آخر.

ابتعدتُ عنها خطوات، والتفتُ إليها، وجدتها تقلّب الكتب كأنها تبحث عن شيء معين، وقف الضابط قبالتي ليقول:

- انظري إنها تريد أن تجد أحداث وإجابات مقنعة لكِ بين الروايات.

- ولكن إن لم تكن قصتها حقيقية، أخبرني أنت ما هو جرمها ؟

- وُجِد زوجها مقتول بموس الحلاقة، وبجانبه علبة المخدرات.

لم اتمالك نفسي وسقطت من يدي حقيبتي، ولكن بعد لحظات تجاوزت دهشتي وقلت:

- قد يكون جرح نفسه؟

- بصمات أصابعها في كل مكان.

- والرسالة.

- لا توجد أي رسالة هي تتخيل إنه كتب ذلك.

- وهل ثبت الجرم عليها .

- ثبت لوجود بصماتها، ولكن لم يؤكد إن هو انتحر أم هي قتلته؟ .

- إذن على أي أساس سُجِنَت؟

- حتى تظهر أدلة جديدة.

لم أتمالك نفسي وصرخت:

- وهل ستظل حبيسة وتتخيل الأحداث إلى أن تجدوا أدلة جديدة؟ .

- هكذا هو القانون.

- والمصح؟

- لم يزره أحد غيرها في ذلك اليوم.

- قصة معقدة حقيقةً.

-١٤-

دخلنا أنا و "الضابط جعفر" إلى مكتبه ، وجلستُ على الأريكة التي قد غُلِّفَت بالجلد الأسود الذي لا أستقر عند الجلوس عليه، فبين الحين والآخر اتزحلق من عليها، وأعود لأستقر عليها بعد تمسكي بأطرافها، سمعته يقهقه بخفاء ويضع يده على فمه بينما كان يبحث بين الملفات عن ملف السجينة (مينا)، قمت من على الأريكة السوداء لأجلس على الكرسي المنفرد بجانب مكتبه، التفت إلي وقال:

- أراكِ قد غيرتي مكانك؟

- الأريكة غير مريحة.

ضحك وهو يرمقني بنظراته الحادة، ووضع الملف على المكتب، سحب الكرسي الدوار وجلس، وأخذ ينفث دخان سيجارته في الهواء، ثم قال:

- هذا ملفها، هل تحبين قراءته أم أحدثك أنا عنه؟ .

- حدثني عنه، قد تكون لك وجهة نظر أخرى.

- سأعطيك تفاصيل مختصرة بعيداً عن محل سكناها وتحصيلها الدراسي، المهم هنا هو لحظة الجريمة.

عندما زارته كانت تحمل صندوقاً ذا حجم متوسط داخل كيس بلاستيك، وادَّعت إنَّ في داخله طعاماً، وعند التفتيش وُجِدَ فيه بعض من المعجنات قد غُلِفَت بإحكام، وتم اللقاء في كافتيريا المصح، وبعد دقائق غادر هو وهي تتأبط ذراعه وذهبوا إلى غرفته الخاصة في المصح، بعد ساعة خرجت هي من الغرفة بشكل طبيعي لا يدل على إنها قامت بفعل معين، وتمكنت من الخروج من المصح دون إثارة أي مشكلة، وعند مراجعة الطبيب لغرفته وجده مرمياً على الأرض ورقبته تنزف دماً، والصندوق موجود على السرير دون أن يأكل منه شيئاً، فقط إحدى الأكياس التي غُلِفَت بها المعجنات قد مُزِقَت، وبعد البحث والتفتيش وُجِدَ أنَّ في داخل كل كيس حبة مخدرة، أحدها قد استعمل أو فقد .

قاطعته وقلت:

- هل تقصد يوجد حبة مخدرة قد تعاطاها ؟ .
- أو قد أخذها شخص آخر.

- هل تشك بشخص آخر غير الزوجة؟ .

- أغلب المرضى متعاطين.

- وكيف ستثبت ذلك إن لم تكن هناك بصمات غير بصمات الزوجة؟ .

- نحن في انتظار تحليل بصمات الكيس.

- والموس؟

- الموس كان في يده.

- وماذا يعني؟

- هنا اللغز.

- والرسالة؟

- قلت لكِ، لم يكتب شيء، هي تتخيل ذلك.

- ألم تجد شيء آخر في الغرفة ؟

- نعم وجدت.

- ماذا وجدت؟

- ستعرفين ذلك لاحقاً .

-١٥-

تلمست مقبض باب بيتنا وكان يكوي من شدة حرارة الصيف الذي زارنا بعد رحلة قصيرة مع الشتاء ، أدرت المفتاح فيه و بالتو فُتح حتى وجدت أمي وهي تشع غضباً، تقف وهي تحمل كيساً أسوداً مليء بالنفايات، رفعته بوجهي وقالت:

- شرفتي واخيراً .

حملتُ الكيس ، و أدرتُ وجهي عنها كي لا تستمر في التحقيق معي، مشيت بضع خطوات ورميته في الحاوية التي قرب المدرسة، لطالما تساءلت لِمَ البلدية تضع الحاويات قرب المدارس؟ رجعتُ بسرعة إلى المنزل وطرف ثوبها يبرز من تحت الباب فهي مازالت تنتظرني، دلفت، وبسرعة خارقة عبرت الصالة والسِلَّم حتى وصلت إلى غرفتي ولم ألحق أن أغلق الباب، حتى صاحت:

- انزلي بسرعة، فالبيت ينتظر من يقوم بتنظيفه.

تركتُ الباب مفتوح واستلقيت على سريري، اطالع السقف وكالعادة وجدت العنكبوت وهو يتحرك يميناً وشمالاً، شعرت بأنه يحاول إغاظتي بتنظيف منزله بهذه السرعة بينما أنا أتكاسل وأتمرد طوال الوقت على عملي المنزلي، إحدى الذبابات رمى بجثتها المتيبسة على الأرض وراح يركض بسرعة ليرمي الأخرى، أرضية غرفتي أصبحت مليئة بجثث الذباب، تأملتها فكيف للقاتل أن يستمتع بهذا المنظر؟ اغمضت عيني لأمنع نفسي من التفكير، ومن شدة الإرهاق غفوت وراحت يدي تتدلى من على السرير، تمسكت بحافة الطاولة التي في الوسط ولكنها أخذت تدور بسرعة وكلما أحاول إيقافها ترميني بعيداً كأنها رحى تريد أن تطحن كل من يمس طرفها، هبط العنكبوت عليها وأخذ يحيك خيوطه حولها حتى صنع شبكة وأرتفع بها إلى الأعلى، التصقت الطاولة بسقف الغرفة والعنكبوت يتحكم في دورانها عن بعد، وأنا أقف تحتها مشدوهة الفكر، لا أصدّق ما أرى! قفز العنكبوت عليّ محاولاً لف خيوطه حولي ولكن الطاولة سقطت عندما فقد تركيزه عليها، تلقفتها بانحناءة ظهري، دون أن أشعر بألم سقوطها، قمت من تحتها منتشيه بانتصاري على العنكبوت الذي فقد سحره على الطاولة وعليّ، حملتُ شالاً أحمراً ألّوح به للعنكبوت لإغاضته، وفجأة قفز على وجهي،

وبانت أمي تقف قبالتي، صرخت:

- ماذا قلت لكِ؟

قمت من سريري وأنا ألف شالاً احمراً حول يدي والدنيا تدور حولي، العنكبوت معلق في السقف كما هو، والطاولة على الأرض كما هي، وأمي تحمل إناء الماء وهو فارغ وتلّوح لي بقطعة قماش مخصصة للتنظيف، فركتُ عيني وقمت أتعثر حتى وصلت إلى الإناء حملتهُ ونزلت السِلَّم، تلقتني أختي وهي تضحك ملء فمها، مدت يدها لي تعطيني السائل المنظف كي أقوم بواجباتي المنزلية دون رحمة.

-١٦-

حلَّ الصباح والغبار يراود الشمس عن نفسها، تارة يلفها ويحجبها عن الرؤيا وتارة يترك لها شيئاً من بصيص أملٍ بشعاع يشق بدن السماء نحو الأرض، لبستُ الكمامة وارتديت نظارتي الطبية؛ لأحمي عيني من الغبار المتطاير، تلك النظارة كنت ارتديها منذ صغري حتى تقرّب الأحرف البعيدة وتجعلني واثقة من نفسي اثناء خطواتي، ولكن عندما كبرت تركتها لشعوري بأنها ستجعلني بنظر الأخرين معقدة ومتوترة، عدتُ إلى أيام مراهقتي واخرجتها من مخبأها؛ حتى أرى كل شيء متطاير قد يصادفني أثناء هبوب العاصفة الترابية، فتحت باب المنزل والغبار يعيث في الأرض دماراً، جفاف تشققات الشارع التي لطالما كانت تعاني من مياه آسِنة، وجوه حائرة بين مواجهة غبار الطبيعة أم دخان المولدات، ركبتُ الباص الذي نسي صاحبه أن يغلف كراسيه بجلد يسمح لنا بالجلوس بطريقة مريحة ، اضطررت إلى السكوت ومراقبة الطريق من خلال النافذة المغبرة لا يظهر منها سوى الغواش، وصلت إلى السجن الذي بدأ وكأنه في وسط

الصحراء، وقفت أمام الحارس كان في حالة جمود غريبة، حملقت في وجهه وحملق هو ايضاً في وجهي، وقال:

- بأي مكان قد رأيت هذه العينين التي تختبئ تحت النظارة؟
- حاول أن تتذكر.
- لا أحتاج إلى ذلك.
- اذاً.
- أنت الفتاة التي تحاور السجينات.
- أحسنت، أنا بسببك أعيش لغز غريب.

قهقه بصوت عالٍ، وقال وهو يُعدّل من غطاء رأسه العسكري :

- لذلك أنا مستمر، ولا أحد يستطيع فك شيفرة وجودي.
- أتمنى لك كل التوفيق.

تجاوزته ومررت أُكمل طريقي نحو السجينات، وكان أملي أن ألاقي سجينة أخرى،

دخلت القاعة، وجدت الكثير منهن يجلسن مع زائرين لهن، وبقيت مصطبتي خالية من أي سجينة، جلستُ انتظر قدوم أحدهن ولكن الشرطي هو من جاء بدلاً عنهن، حمل الصندوق دون أن يطلب موافقتي، قطب حاجبيه، وقال:

- بسببك حل الهرج والمرج في السجن.
- وكيف ذلك؟
- ألحقيني وستعرفين.
- انتظر أين ستذهب بكتبي؟
- الضابط قال يجب حرقها .
- قلت لك انتظر.

لحقته حتى دخلنا مكتب "الضابط جعفر"، وقد كان يمسك بيده مجموعة من الملفات، وعندما رآني طلب من الشرطي وضع الصندوق قرب مكتبه، وأمرني بالجلوس، لم استجب لأمره وقلت وأنا امسح جبيني من قطرات العرق التي اخذت تنزل على عيني:

- ماذا حصل حتى تمنعوني من اكمال مهمتي؟

- لم يحصل شيء، فقط حواراتك مع السجينات ستكون هنا في مكتبي .

ابتلعت ريقي الذي جفَّ بسبب الغبار، وفكّرت لو كان الحديث هنا ماذا سيحصل؟ اكيد لن تتكلم السجينة كما تشتهي، سحبتُ الصندوق نحوي محاولة حمله، عندها أشار إلى الشرطي بأن يمنعني، وسحب الصندوق مني مرة أخرى، أشرت بسبابتي نحوه وقلت:

- لن تمنعني من أخذ كتبي.
- ولِمَ أنتِ خائفة من الحوار معهن أمامي؟
- أنا لستُ خائفة، ولكنهن لن يتكلمن تحت تأثير الضغط.
- ومن سيضغط عليهن؟
- أنت و رجالك.

فتح فمه بابتسامة صغيرة، وضغط على الجرس، فُتح الباب ودخلت مينا وهي تحمل أحدى الكتب، نظرتُ إليها، كان وجهها يدل على فرحة مكبوتة، أمرها بالجلوس وسلّمها ورقة مطوية الذي زادني فضولاً أن أعرف ما في داخلها، خبأتها بين طيات

أصابعها، تلعثمت في بداية حديثها، سبقها الضابط وقال:

- ثبتت براءة مينا اليوم.

قمت من مكاني غير مصدقة لكلامه، وصحت:

- كيف ذلك، هل ثبت أنه قد أنتحر؟

- لا، وجدنا بصمات لقاتل آخر.

- أين وجدتموها و كيف؟

- المحفظة.

- ما بها ؟ هيا تكلم أشعر إن قلبي سيقف من شدة الفضول.

- سأروي لك الحدث، من بعد خروج مينا من المصح إلى اللحظة التي قتل فيها .

- هيا تكلم.

- عندما جلبت مينا الصندوق لزوجها سليم طلب منها مساعدته في الحلاقة، حيث قضت ساعة كاملة معه ولكن بعد خروجها كان بانتظارهما شخص آخر كان قد اتفق مع سليم على حصوله على حبة مخدرة مقابل مبلغاً من المال، حيث كان

زوجها سليم يبيع الحبوب على المرضى الراقدين حتى يحصل على أكبر مبلغ ممكن، وفي ذلك اليوم، دخل شخص بعد مينا كان قد طلب من سليم حبه مخدرة بدون أن يدفع مبلغ مادي مقابلها حسب اعترافه، لكن سليم رفض تسليمه الحبة واستمر الحال حتى اشتبك الطرفان، فحاول الطرف الثاني لوي ذراع سليم وسرقة الصندوق حيث وجدنا كسر في يده اليمنى ولكنه تمكن من صده بيده اليسرى التي وجدنا فيها رضوض لصراع دام أكثر من خمس عشرة دقيقة، وتدافعا حتى رمى بسليم على الأرض قرب حوض الاستحمام وحاول كتم أنفاسه بيده فلم يجد أفضل من موس الحلاقة الذي حمله بفوطة الحمام المرمية على الحوض وحز رقبته بهِ، وعندما رأى الدماء تسيل بغزارة وهو يتلوى ألماً شعر بالارتباك الشديد والتخبط، ولكنه لم ينسَ هدفه الأساسي، حيث توجه مسرعاً نحو السرير فوجد الصندوق متناثراً على الأرض، حملهُ وأخذ منه حبة واحدة وانتبه لوجود محفظة النقود على الطاولة و أمسك بها دون تفكير وسرق ما في داخلها تاركاً بصمات أصابعه عليها، وبعد البحث والتحري ومواجهة الشخص بالجريمة أقرَّ بجريمته وثبتت براءة مينا المهووسة بكتب شارلوك هولمز.

لم أصدّق ما تحدَّث عنه، كان شيء فعلا يشبه قصص شارلوك هولمز بل الغاز أجاثا

كرستي، قمت من مكاني أحتضن مينا وأبارك لها براءتها، وما إن أكملت لحظات فرحتي حتى التفت إلى الضابط وقلت له:

- حسناً، اترك كتبي في مكانها، لعلي أتمكن من حل ألغاز باقي الجرائم.

قهقه بصوت مكتوم، وقال:

- كنت الهمتِ نفسك قبل أن تحز رقبتك السجينة.

شعرت بغيض شديد، وفتحتُ حقيبتي وأخرجتُ منها الحبل ووضعته على المكتب، وقلت له:

- خذ حقها من والدها الذي دمَّر حياتها بدل أن تستهزئ بي.

أجابني وهو يمسك بالحبل ويلفه على يديه:

- خرجت الفتاة من السجن هي الأخرى، وحولت إلى دار الأيتام؛ لأنها مازالت قاصراً ولأن والدها قد توفي أثناء شجار حصل في حيهم، طُعِن بسكين لأجل حفنة مخدرات لم تسعفهم بشيء.

- هل سيسمح لي بزيارتها هناك؟

- بالتأكيد سيسمح لكِ.

شكرتُ الضابط على تعاونه معي وخرجتُ و في داخلي شعور بالفرح لأني واكبت خروج اثنتين من السجينات البريئات، وساعدتهن في تجاوز محنتهن ولو بشيء بسيط.

-١٧-

قلبت الصفحة وسجلت أسم سجينة أخرى، كنت قد ألتقيتها في آخر الرواق تنتظرني بلهفة، حملتْ رسالة مع مبلغ من المال ووضعتهم في جيب قميصي، استغربت فعلتها ولكنها لم تمهلني سؤالها وقالت:

- سأعطيكِ عنوان منزلي، أريد منك فقط اعطاء هذا المبلغ لأخي الصغير، فهو وعدني بإخراجي من السجن.

اخرجت المال من جيبي، وقلت:

- ولكن هذا المبلغ كبير، من أين حصلتِ عليه وأنت في السجن؟.
- قمت برسم لوحات وبعتها.
- وكيف تمكنتِ من بيعها، هل هنا من يشتري؟.
- لا، ولكن أخي من يروج لي عن طريق الانترنت، ويبيعها لي بعد كل زيارة، يسلمني النقود ويذهب ولا يأتي إلا بعد إرسالي له برسالة.

شعرت بالشفقة عليها، فنانة وتقبع في السجن، مَنْ السبب في دخولها هذا المكان؟

خرجتُ من بوابة السجن والشمس ازاحت الغبار عن وجهها المشرق، مقررة سلخ وجوه المارة بأشعتها ومن ضمنهم الشرطي الذي كان يجلس على الكرسي وبيده قدح من الشاي وبخاره يخرج من فمه دون هوادة، اخرجتُ من حقيبتي قطعة من الكعك واعطيتها له، وقلت:

- لن أغيب كثيراً، لدي الكثير من النساء هنا بحاجة إلى المساعدة.

وضع قطعة الكعك في قدح الشاي، وغمز لي قائلاً:

- أهلا بكِ في كل وقت.

أشار إلى سيارة الإجرة وفتح الباب الخلفي لي، رميت حقيبتي في داخل السيارة ثم ارتميت بنفسي على مقعدها، وسمعته يقول للسائق:

- أوقد لها المكيف.

نظرتُ في المرآة وكان السائق يبحلق فيّ، لم أصدّق ما رأيت أنه ذاته الذي أوصلني عند الوزارة، كنت أنوي سؤاله عن التكييف العاطل ولكنه سبقني وقال:

- هل تمكنتِ من حل مشاكل السجينات؟

ابتسمت بخبث، وقلت:

- وهل تشك بذلك، أخبرني أنت هل اصلحت التكييف؟

قهقه وضغط على زر الراديو وتركه يصدح بصوتٍ عالٍ.

انتهت بعون الله

كل ما جاء في الرواية هو من نسج الخيال

لأبداء رأيكم تواصلوا معي على الإيميل

Ssnajm550@gmail.com

وشكرا لكم